السلام في الشعر الفلسطيني الحديث بين الحلم والواقع من سنة ١٩٤٨-١٩٩١م

د/ عبد الهادي أبو سمرة*

Abstract

This study involves an important humanitarian literary issue , it is the peace in Palestinian modern poetry between dream and fact till 1991. I have tried my best to show the Palestinian's dream in living peace fully and his endeavor to achieve it. I have, too, clarified the bitterness of he reality the has been living since 1948 until now, using all means of allowed struggle – the peaceful and civilized means through dialogue with the other part till it was ended with signing a peace treaty in both Madrid and Oslow in 1991. I have shown the artistic characteristic of the poetical samples that I have taken through study analysis.

ملخص البحث

تناولت هذه الدراسة قضية أدبية إنسانية هامة هي السلام في الشعر الفلسطيني بين الحلم والواقع، حتى عام ١٩٩١م. وحاولت إبراز حلم الإنسان الفلسطيني في العيش بأمن وسلام والسعي لتحقيقه، كما أوضحت فظاظة الواقع المرير الذي– ما زال يعيشه – منذ نكبة عام ١٩٤٨ حتى الآن مستخدماً كل الوسائل النضالية المشروعة، والوسائل السلمية الحضارية عبر الحوار مع الآخر حتى انتهى به الأمر إلى وضع الخطوط الأولى لإبرام اتفاقية السلام في كل من مدريد وأسلو سنة ١٩٩١م، وقد بينت الخصائص الفنية للنماذج الشعرية التي تناولها البحث بالدراسة والتحليل .

* أستاذ مساعد كلية الآداب جامعة الأزهر في –غزة .

مقدمة :

السلام من المعاني التي يطمح إليها كل كائن حي – خاصة – الجنس البشري الذي يقع على عاتقه مهمة البناء والتعمير لهذا الكون، حيث جعله الله خليفة له على الأرض، يعمرها بالحب والتعاون والتآلف من أجل خير الإنسان وسعادته.

وإذا كان الصراع بين الخير والشر قد وجد منذ الأزل، ووجد التنابذ والتخاصم والاقتتال، فإنه لم يظهر بصورة بالغة الخطورة إلا بعد أن أقدم إنسان القرن العشرين على اختراع أدوات الدمار التي تهدد بفناء البشرية جمعاء.

إن عالمنا اليوم، بعد أن بلغ شأواً عظيماً في مجال التقدم العلمي والحضاري، ما زال مشدوداً نحو الإيمان بالقوة والجبروت، ويتحرك معظم قادته العظماء، ودوله الكبرى نحو خدمة مصالحهم ونفوذهم بالدرجة الأولى، حتى لو كان ذلك على حساب القيم الإنسانية والأخلاقية قيم ثبت عمليا وواقعياً أنها مرهونة بتفسير أصحاب القوة والجبروت حسب خدمة مصالحهم ونفوذهم وما يتمشى مع أهوائهم ونزعاتهم.

وفي مجال الأدب – خاصة الشعر – ظهرت الدعوة إلى نبذ التخاصم والاقتتال بين البشر، وإحلال السلام والتسامح منذ العصر الجاهلي وخير نموذج على ذلك شعر / زهير بن أبي سلمي في مدحه لكل من هرم بن سنان، والحارث بن عوف لدفعهما ديات القتلى كي يحل الصلح بين المتقاتلين من قبيلتي عبس وذبيان، ويعود السلام بعد نزيف الدم الذي استمر سنين عديدة. ثم ظهرت الدعوة واضحة عند أصحاب المذهب الرومانسي الذين اتخذوها هدفاً نبيلاً يسعون إليه، فأكثروا من الحديث عن السلام والحب والوئام، والخير إلخ. لكنها جميعاً لم تفلح في منع الصراعات واندلاع الحروب وكان أشدها إيلاماً ما شهده النصف الأول من القرن العشرين من قيام حربين عالميتين

تجرعت البشرية بأسرها مرارة الدمار والخراب وقتل الإنسان لأخيه الإنسان، والتي ما زالت آثارها حتى اليوم، الأمر الذي دفع أصحاب الاتجاه الواقعي بتجنيد كافة السُبل التي تتصدى لمنع تكرار الحروب.

وإذا ما انتقلنا إلى واقعنا العربي وجدنا أنه في حاجة ماسة إلى السلام والأمن أكثر من غيره وفي مقدمته الشعب الفلسطيني الذي حُرم من العيش في أمن وسلام بسبب الظلم والعدوان الذي تمثل في اغتصاب أرضه وطرده منها وتعرضه للإبادة والتصفية الجسدية عن طريق المذابح والحروب التي زادته صلابة وقوة في إثبات وجوده وأهميته في الحياة الحرة الكريمة، ولهذا فهو أكثر تشوقاً للسلام العادل الشريف الذي يُعيد إليه حقه، ويرفع الظلم عنه، وإن يعيش داخل وطن كامل السيادة، وعلى أرض حرة عرفت منذ القدم بأرض السلام.

ولم يكن اختياري لموضوع السلام إلا لأنه يمثل جانباً حيوياً ومصيرياً في حياة الشعب الفلسطيني بصفة عامة، وقد انعكس ذلك بشكل بارز في الأعمال الأدبية والفنية وخاصة الشعر، ومن يتصفح دواوين الشعراء يجد مساحة كبيرة من الأشعار التي تتغنى بالسلام وتدعو إلى تجسيده على أرض الواقع ليس للإنسان الفلسطيني فحسب بل للإنسانية جمعاء .

وعلاوة على ذلك فإن هناك عاملاً زمنياً كان له أثره البارز في تناول هذا الموضوع وهو دخول منظمة التحرير الفلسطينية في الآونة الأخيرة في معاهدة سلام مع العدو الإسرائيلي، مما دفعني إلى تنبع جذور هذه القضية وأبعادها الإنسانية والوطنية كما تجلت في النصوص الشعرية.

وسوف يكون تناولي للموضوع في مدخل ومحورين :—

– مدخل لمفهوم السلام في اللغة والشريعة والعصر الحديث.

١- السلام حلم الشاعر الفلسطيني وأمله .

٢- السلام في ظل الواقع من سنة ١٩٤٨م، وحتى عام ١٩٩١م.

أما سبب توقفي عند التاريخ المذكور فلانه تم التوصل في ذلك العام (١٩٩١م) إلى إعلان المبادئ الذي تم التوصل إليه للتسوية السلمية بين العرب والفلسطينيين من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى في مدريد. لتبدأ مرحلة جديدة تستحق دراسة خاصة ما زالت معالمها لم تتضح بعد. وقد اتبعت في دراستي هذه المنهج الوصفي التحليلي بما يتناسب والموضوع.

مدخل

ويتضمن مفهوم السلام في: اللغة – الشريعة – في العصر الحاضر – علاقة السلام بفلسطين .

أولاً : في اللغة :

السلام بمعانيها المختلفة في اللغة– كما جاء في لسان العرب [1]– هي البراءة من العيوب وكل ما يكدر الإنسان في حياته أو يؤذيه ، أو ينغص عليه حياته كي يعيش في أمن وحب وصفاء، واطمئنان نفس، وهدوء بال، ليفرغ إلى عمارة الأرض بالحب والتفاهم والتعاون

ثانياً : في الشريعة :

السلام : الإسلام وكل ما جاء به رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم – والإسلام من الشريعة التزام بالخضوع وإظهاره والتزام بما جاء به النبي ، فيحقن الدم، ويدفع المكروه كما جاء في الحديث الشريف في تعريف الإنسان المسلم وهو " من سلم

١- لسان العرب – دار المعارف في القاهرة سنة ١٩٩٧ ص ٢٠٧٨

المسلمون من لسانه ويده"[1]، والمعني له دلالة واضحة ساطعة على حرص الإسلام على أن يعيش الجميع في أمن وسلام، فلا اعتداء، ولا ظلم، ولا أذى بالقول "اللسان" ولا بالفعل "اليد" .

والله سبحانه وتعالى – يأمرنا في كتابه العزيز أن نجنح للسلم ويرغبنا فيه إذا مال عدونا لمسالمتنا، وعدم محاربتنا والاعتداء علينا في قوله تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"[2]. ولما كان الإسلام دين عز وكرامة فهو لا يرضى لنا أن نضعف وندعو إلى مهادنة الكفار وسلمهم عن ذل ومهانة،

فقد نهانا الله عز وجل عن ذلك في قوله تعالى: "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم"[3] والأعلى هنا الإيمان .

ولو استقرأنا تاريخ البشرية لرأينا وطن الإسلام كان الحصن الحصين والبلد الآمن لكل الناس وأولهم – اليهود في الأندلس وغيرها من ديار الإسلام وعبر القرون، وقد جاءت مادة "سلم" – في القرآن الكريم في إحدى وثمانين آية.

السلام في العصر الحديث :

السلام من الألفاظ التي لها معانٍ عدة، فهو يوحي بمعاني الاستقرار والمحبة والأمن والأمان والتي في ظلها يتم البناء والتقدم والرخاء.

والسلام مطلب ملح على مستوي الدول كما هو للأفراد، داخل مجتمع من المجتمعات، وحتى داخل الأسرة الواحدة، لذا أخذ الأفراد يتغنون به كما تتغنى الدول والشعوب، وأصبح ضرورة استراتيجية لدوام الازدهار وتقدم الحضارة الإنسانية، ولكن في

١– رواه البخاري في كتاب فتح الباري المجلد الأول، حديث رقم "١١" ص ٧٩، المطبعة التجارية – بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٢– سورة الأنفال ، آية (٦١) .

٣– سورة محمد ، آية ٣٤ .

الآونة الأخيرة ظهرت بوادر تدعو للخوف والقلق من تزايد عدد الدول التي تمتلك القنابل الذرية، وتقوم بإجراء التجارب عليها وآخرها الهند وباكستان، رغم ما تعانيه كلتا الدولتين من فقر، ومستوى متدنٍ من المعيشة، فالله وحده أعلم بالدول التي لم تعلن أوفى سبيلها لامتلاك أسلحة الدمار والفناء، ومن هنا جاءت الحاجة إلى قرع أجراس الخطر من قبل العلماء والمفكرين والأدباء، فالحرب إن قامت – لا قدر الله – فإنها ستحرق كل الأصابع التي تعمل من أجلها، ولن يسلم منها إنسان، لأن آثارها سوف تتغلغل داخل الأرض والتربة وتلوث الماء والهواء، وبالتالي تفتك بالإنسان ذاته، والدليل الحي ما خلفته القنابل الذرية منذ أكثر من نصف قرن في مدينتي: هيروشيما ونجازاكي في اليابان – وما زالت آثارها حتى اليوم، وكما رأينا في الآثار الأليمة للمفاعل الذري في "تشرنوبل" في الاتحاد السوفيتي القديم.

والسلام لكل دولة نوعان: سلام داخلي، وسلام خارجي.

- أما السلام الداخلي: فيقوم على الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأمني داخل المجتمع بعيداً عن القلاقل والاضطرابات التي تزعزع الأمن والاستقرار، وتثير الفتن والنزعات العدوانية.
- أما السلام الخارجي: فيتمثل في بسط الدولة لسيادتها على ترابها الوطني الكامل، وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، أو طمع جيرانها أو أعدائها في ثرواتها من نفط أو مياه ... إلخ.

ومفهوم السلام يتفاوت من دولة إلى أخرى، فالدول الكبرى تريد المحافظة على مصالحها ولو كانت على حساب استنزاف خيرات الدول الصغرى واستغلال ضعفها، والدول الصغرى في المقابل تريد بسط نفوذها على خيرات شعوبها أو استرجاع ما أخذ منها ومن هنا يأتي اصطدام المصالح فتنشأ الحروب والمواجهات التي لا يقتصر أثرها

على دولتين فحسب، ولا أعتقد أن إنساناً – ما – في هذا العالم لا يرغب في السلام، حتى أولئك الذين طبعت نفوسهم على العدوان، وسفك الدماء. فإنهم يسوغون تصرفاتهم هذه بأنها من أجل السلام، ولكن بطريقتهم الخاصة التي تتمشى مع مصالحهم وأطماعهم. وذلك لأن السلام إحساس داخلي ينبع من الشعور بالرضا والاطمئنان في الحاضر والمستقبل، أما إذا فقد هذا الإحساس، فإنه سيفقد كل معاني السلام، ويتحول الوجود في نظره إلى غابة مظلمة لا مكان فيها للضعيف فتضيع فيها الحقوق، وتمتهن فيها كرامة الفرد وتسود لغة الغاب، فلا أمن ولا سلام.

والله خالق هذا الكون أعطى الحق للمظلومين والمقهورين في الدفاع عن أنفسهم وعن وجودهم ورفع الظلم عنهم، واستعادة كل حقوقهم في العيش بحرية وكرامة. فوسائل النضال مشروعة ومعترف بها في الأديان السماوية وفي القوانين الوضعية .

وقد تغيرت مفاهيم كثيرة عند إنسان هذا العصر، وأصبح بفعل الوعي وإحساسه بالمسئولية يدرك جيداً كيف يتمسك بالحياة الحرة الكريمة، وكيف يتخلى عنها طائعاً إذا عزت هذه الحرية وهذه الكرامة، مستبشراً بحياة أعظم إشراقاً، وأعظم خلوداً وبقاءً ، ولم يعد الموت في نظر هذا الإنسان ذلك الفناء والغروب والفقد، " ولم يعد الكفاح المسلح – مهما بلغت التضحيات – إلا وسيلة للتحرر والانعتاق من العبودية والمذلة، وتأكيداً للذات وحقها في الحياة الكريمة الآمنة. وإلا ظل هذا الإنسان يتخبط في ظلمات القهر والتعسف والجور، فاقداً لأبسط حقوقه الإنسانية، وأدنى مشاعر العزة والكرامة"[١].

١–محمد مفيد قميحة ، النزعة الإنسانية في الشعر المعاصر – رسالة دكتوراه مخطوطة ، ص ٤٣١، جامعة القاهرة

من هنا كان لزاماً أن نفرق بين السلام العادل والشريف الذي يقوم على الاحترام المتبادل والكامل، وعلى مستوى الندية والمساواة بين كل الأطراف، والسلام الذي يفرض من منطلق القوة والفوقية من طرف على طرف آخر، وفرض أمر مجحف وفي ظل ظروف طارئة ومؤقتة فإن هذا يُعد استسلاماً . لا سلاماً – فلا يعيش طويلاً وخاضع لتغير الظروف، ويبقي معرضاً للانفجار لأن الشعور بالظلم هو الذي يولد الثورة عليه .

وطالما وجد الإنسان المؤمن بربه وبعدالة قضيته، والملتزم بالدفاع عنها، المصمم على استعادة حقوقه كاملة، وتأكيد ذاته الفاعلة الإيجابية والخيرة، فإن النصر سيكون حليفه لا محالة، مهما استشرى الظلم، وعظمت التضحيات، وسيجد من يدعمه من أصحاب الضمائر الحية الخيرة، من أجل انتصار الحق على الباطل، والخير على الشر، والحب على البغض والكراهية، وانتصار السنبلة والزهرة على المدفع والذرة.

السلام في فلسطين :

ويرجع أهمية هذا العنوان للعلاقة التي تربط إحداهما بالأخرى، وذلك لمكانة فلسطين الدينية فهي أرض الديانات السماوية الثلاث، والتي تدعو جميعها إلى السلام والأمان، والسلام من معانيه الإسلام وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما تذكر لنا حادثة الإسراء والمعراج – صلى بالأنبياء إماماً في المسجد الأقصى المبارك، والمسلم يهفو قلبه للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، كما هو قبلة الحجاج المسيحيين، كما أن الموقع الاستراتيجي لفلسطين في قلب العالم العربي، يمثل همزة الوصل بين الشرق العربي في آسيا والمغرب العربي في أفريقيا، فالحرب والسلام منوط بالاستقرار والأمان في فلسطين.

وفي ظل الإسلام الحنيف عاش الجميع في فلسطين من مسلمين ونصارى ويهود في أمن وحب وسلام، ذلك أن الشريعة الإسلامية السمحاء من شروط الإيمان بها أن

يؤمن أصحابها بالله وملائكته وكتبه ورسله مصداقاً لقول الحق – عز وجل – " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رُسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " [١]

آمن الإنسان الفلسطيني المسلم أن الإسلام رابطة إنسانية تورث الشعور العميق بالتقدير الإنساني للآخرين، وأنها منبع الأخلاق وإحقاق الحقوق، وهي روح الحياة في شمولها الإنساني ورسالته، لذا كانت فلسطين تحتضن كل أصحاب الديانات ويمارس الجميع طقوسهم الدينية في حرية تامة، ولم تسجل حادثة اضطهاد واحدة لإنسان يعيش في كنف هذه الديار المقدسة، والأمثلة على تسامح المسلمين مع غيرهم أكثر من أن تحصى وعلى سبيل المثال لا الحصر – ما أورده المستشرقة الألمانية، زيغريد هونكة في كتابه " شمس العرب تسطع على العرب" حين قال : " أن بطريرك بيت المقدس كتب في القرن التاسع لبطريرك القسطنطينية عن العرب: أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون أي عنف معنا "[٢].

أردت من خلال هذا المثال أن أبين نزعة الإنسان الفلسطيني المسلم الخيرة المسالمة انطلاقاً من عقيدته السمحاء، ومن أرضه التي عرفت على مر العصور بأنها أرض الهداية والحب والأمن والسلام فنوديت بحق "أرض السلام" وبين نزعة من يحتلونها الآن من غزاة معتدين، جاءوا يقتلعون الإنسان الآمن من أرضه ويسفكون الدماء، ويشيعون نار الحقد والكراهية والاقتتال، ويتظاهرون بالسلام الذي هو في حقيقته طعماً لمطامع أكبر ولشيء في نفس يعقوب .

١– سورة البقرة، آية ٢٥٨ .

٢– نقلاً عن د. خلقي خنفر – تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٣، ط١، سنة ١٩٩١م، جامعة الخليل .

المحور الأول

السلام حلم وأمل

السلام من الكلمات التي تطرب لها الآذان، وتهفو إليها النفوس، ففي ظله ينعم الإنسان بالراحة والرضا، ويسود الاستقرار الذي به تتقدم البشرية وتبني وتعمر نحو خير الإنسان وسعادته.

وإذا كان السلام حلم كل فرد وأمله، فإن الشاعر أكثر حاجة إليه وبحثاً عنه وذلك من خلال ما حباه الله من رهافة الحس، وخصب الخيال، ورحابة الأفق، ففي أفياء السلام تتفجر طاقاته الإبداعية، بعد تأمل في قراءة الواقع، وهضم للماضي واستشراف المستقبل ليصوغ آماله وأحلامه، حياة الغد الآتي نحو الأفضل والأجمل والأمتع.

والشاعر الفلسطيني ربما كان من أكثر الناس حلماً وأملاً في السلام، يرفده عوامل عدة :

أولها: أن أرضه نوديت من القدم بأرض السلام، فهي ملتقى الديانات السماوية الثلاث التي تدعو جميعها في منابعها الأولى إلى السلام والمحبة .

وثانيها: أن التاريخ الإنساني لم ير مكاناً آمناً في السلم والحب كما هو الحال في فلسطين، وكان شعب فلسطين أكثر الشعوب تسامحاً حتى مع المعتدين خاصة بعد دخول فلسطين في الإسلام.

ثالثهما: أن آلام الشعب الفلسطيني عمدته الجراح من خلال طمع الطامعين في فلسطين وكثرة الغازين فلم تزد هذا الشعب إلاّ حباً وتسامحاً للآخرين، وقد عبر شاعرنا الفلسطيني/ على هاشم رشيد عن هذا المعني فقال [1]:

قالوا السلام فقلت ذاك مرادي	أنا لست للسلم الشريف أعادي
ارضي بها كان السلام حمائما"	من فوق زيتون النجاد سوادي
ارضي بها ولد المسيح وانها	مهد المحبة ، وهي خير مهاد
ارضي بها الاسراء كان كمعبر	نحو السماء ، وكان درب رشاد
بلدي بها كان السلام فنوديت	أرض السلام، فتلك أرحب نادي
لا تسألوني ما السلام فإنه	رأس المطالب وهو راس مرادي

ولا يخفي ما في لفظ " رأس" من دلالات ومعاني تمثل بؤرة اهتمامات الشاعر وأمانيه وأحلامه عشقاً للسلام، إضافة إلى استخدام الشاعر لمفردات قصيدته التي نسجها وصاغها في لحمة فنية تخدم هدفه وحلمه مثل: السلام والسلم، مرادي "الحلم والأمل"، والهدف المرجو والمبتغي – الحمائم– الزيتون، كلها رموز السلام – المحبة – السماء حيث الهداية والرشاد والسلام، وارتباط ذلك بتكرار أرضي و بلدي والربط المحكم بين أول بيت وآخر بيت وما له من دلالات نحو السلام، كما أن الشاعر كان حريصاً منذ البداية على فهمه الدقيق للسلام حين وضحه بالسلام الشريف .

والشاعر الفلسطيني يعتز بوطنه الذي اسهم في بناء الحضارة الإنسانية عبر العصور، وذلك من خلال القيام بمهمة التنوير والهداية للبشرية المنبثقة من تعاليم الأديان، فكان للشعب الفلسطيني شرف حمل هذه الرسالة للأولين وللآخرين، وحامل

١– قصيدة مخطوطة ألقاها الشاعر في مقر النادي الثقافي المصري بالقاهرة في ١٩٨٦/١١/٢٧م.

مشاعل الحق والدين لخير الإنسان وسعادته وهذا ما عبر عنه الشاعر/ عبد الكريم الكرمي في قصيدته "فلسطين" حيث يقول فيها [1]:

فلسطين إنّا بنينا الحضارة فوق العصور كما تذكرين
ونحن الذين أنرنا الطريق وكنا مشاعل حق ودين
ونحن الذين نثور على الظلم والجهل والفقر في كل حين
ونحن الذين حملنا الرسا له للأولتين وللآخرين

والشاعر/هارون هاشم رشيد يؤكد هذا المعني في نزعته الإنسانية الخيرة المتمثلة في شعاره الذي حمله دوماً وهو شعار الحب لكل الناس، ومن خلال حمله لرسالات السماء ونشر تعاليمها السمحاء التي لا تتم إلا في ظل أجواء السلام كما يقول في قصيدته "إنشاد" [1]:

ما كان سوى الحب شعارنا ما كان
أحببت الناس، جميع الناس بقلب إنسان
وحملت على ظهري الأديان ونشرت الإيمان

ويؤكد الشاعر نفسه هذا المعني من خلال استشهاده بالتاريخ، بأننا كنا دوماً دعاة سلام ومحبة وتسامح، والأدلة على ذلك.

- أننا لسنا أجناد هدم وتدمير كما كان أجناد نبوخذنصر، وتينسى قديماً، ولا فينا من فتح أفران الغاز "كهتلر" حديثاً .
- ولسنا نملك تلموداً يأمرنا بالقتل والذبح، وبقر بطون النساء الحوامل، كما ليس فينا نزعات الحقد والكراهية، أو حاخامات الشر الموتورين.

ومن الأعلى انهالت رشاشات التحذير

١- ديوان " أبي سلمى " ص ١١ ، دار العودة ، ط١ ، سنة ١٩٧٨م ، بيروت

لسنا أجنـــاد بنوخـذ نصـر لسنـــا أجنــاد التدمـير

مـــا فينـــا " هتـلـر " يفتـح أفــرانـاً ويديـر

ما فينا مـأجور وأجـير، مـا فينـا مـأجور وأجـير

لا نملك تلموداً يأمرنا في كل مغـذى وممسى

أن نقتــل، أن نــذبح، أن نخـلق بحـراً أحمــر

ما فينا عقـد الموتوريـن، مـا فينــا عقد النـازيين

كما نرى وفق الشاعر في مفارقته في استخدام النفي والإثبات، فقد نفي عنـا مـن خلال "ما فينا" كل الأعمال العدوانية التي ارتبكت في حق "اليهود" مـن قبـل الآخريـن عـبر الشـخصيات التاريخيـة الـتي اسـتدعاها، والـتي قـامت بـالفعل بإجرامــها مثــل: بنوخذنصر، تيتسي، هتلر، وكذلك الأفعال التي قاموا بها مـن: هـدم وتدمـير، وحـرق في أفران الغاز، وقتل وذبح من خلال صفاتهم بالموتورين والنازيين.

وفي المقابل أثبت الشاعر من خلال استدعاء الشخصيات الإسلامية التي اتصفـت بالعدل والرحمة والتســامح (فينـا) أمثـال: عمـر بـن الخطـاب"رضـي الله عنـه" والقـائد الباسل/ صلاح الدين الأيوبي، وذلك من منطلق عقيدتنـا السمحاء والـتي تأمرنـا بالخـير والحب والتسامح ، يقول [١] .

فينـا عمـر بـن الخطـاب العــادل

فينـا صـلاح الديـن الباســـل

فينـا تكبـيرات تأمرنـا بالعــدل

تــــوجهنا للديــــن

---

١ ديوان هارون هاشم رشيد ، دار العودة – بيروت ط ١ سنة ١٩٧٨ ص ٥٨٨

فينـا لـو تـدرون أفئـــــدة

حتى للجامد تصدع، للصخر تلين

فديننا الإسلامي الحنيف من خلال القرآن الكريم يحثنـا علـى العفـو والتسـامح حتى مع من ظلمنـا كمـا في قولـه تعـالى: " وإن تعفـوا أقـرب للتقـوى ولا تنسـوا الفضـل بينكم " [١].

ورسـولنا الكريـم – صلـى الله عليـه وسـلم – يرشـدنا إلى الحـب والتـوادد مـع الآخرين، واصطناع المودة في قوله بهذا المعني: "رأس الفعل بعد الدين التـوادد إلى النـاس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر" [٢]، كذلك الصحابة أمثال عمر بـن الخطـاب "رضـي الله عنه" أمام العدل، والعهدة العمرية التي أعطاها لأهل القدس "فقد قطـع علـى نفسـه العهد لهم، فأعطاهم الأمـان علـى أنفسـهم وأموالهـم وكنائسـهم وصلبانـهم، فـلا تسـكن كنائسهم ولا تهدم، ولا تؤخذ أموالهم، ولا يكرهون على دينهم" [١]. وكذلك ما عـرف عـن

١- المصدر السابق ص ٥٦٥

[٢]- سورة البقرة، آية ٢٣٧ .

[٣]- إحياء علوم الدين، للغزالي، ط٢ ، مركز القاهرة للترجمة والنشر ١٩٨٨ م

تسامح القائد الباسل/صلاح الدين الأيوبي مع قوات الغزو الصليبي .

فى قصيدة للشاعر الفلسطينى توفيق زياد بعنوان : "كلمات عن العدوان" [٢] (عـدوان ١٩٥٦) يقول فيها :

اننا للمرة الألف نقول :

نحن لا نأكل لحم الأخرين

١- روح الدين الإسلامي، د. عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين ، بيروت، سنة ١٩٨١ .

٢-ديوان توفيق زياد ، دار العودة / بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٤٤٧

نحن لا نذبح أطفالا"؛ولا نصرع أناساآمنين

نحن لاننهب بيوتا أو جنى حقل ولا نطفئ عيون

نحن لا نسرق آثارا قديمة

نحن لا نعرف ما طعم الجريمة

نحن لا نحرق أسفارا؛ولا نكسر أقلاما

ولانبتز ضعف الأخرين

نرى الشاعر من خلال المفارقة التصويرية، طرفها الأول ضمير المتكلمين" نحن" وأداة النفى "لا" التى تنفى عن المتكلم الأفعال الأجرامية التى قام بها الطرف الأخر "الأسرائيلى" على أرض الواقع مفصلا ذلك فى صورا جزئية صارخة، والتى التقتها الشاعر من خلال الأحداث التى تمت مثل : أكل لحوم الأخرين- ذبح الأطفال الأبرياء – صرع الناس الآمنين – نهب البيوت – أطفاء العيون – سرقة الأثار القديمة – طعم الجريمة – حرق الأسفار – كسر الأقلام – ابتزاز ضعف الآخرين، لتكون لوحة فنية تفسح عن عدوانية الأخر.

فهذه الأفعال -كما قلنا – حدثت فى الواقع، ولم يصطنع الشاعر تذويقا أو تلوينا"، أو استخداما لأي من المحسنات البديعية و الزخارف اللفظية، والمجازات و الأستعارات أو غيرها .لأن بساطة الواقع الشديدة أبلغ وأفصح؛ وأكثر تعبير و صدقا من كل ذلك . كما ان عنوان القصيدة يمثل الشفرة لها وقد بدأها الشاعر بالتحذير المتكرر الذى يفيد لفت الأنتباة .

ولمزيد من إلقاء الضوء على أهمية السلام أملا يسعى الشاعر الفلسطيني لتحقيقه بكل ما يستطيع ، وفي أصعب الظروف ، نرى الشاعر/ سميح القاسم في قصيدة له بعنوان :

" حوار مع رجل يكرهني "[1] ، يقيم حوارا مع " الاخر " الـذي أحتـل أرضـه ، وشـرد أهله ، وأحال حياته وبقية شعبه الى جحيـم بـهدف تشـريد البقيـة الباقيـة أو التصفيـة الجسدية عن طريق إقامة المذابح الفردية والجماعية .

وقد إستخدم الشاعر " الحوار " للتعبير عن رؤيته الشعرية في بعديـها المتصـارعين ، لأنه أنسب التكتيكات الفنية ، إضافة الى مزجه مع الأدوات الفنية الأخرى مثل : تعدد الأوزان والشخصيات – والصراع بينهما ، والتفاعل بين هذه الأبعاد ، وقـد رمـز لصـوت الشاعر بالنجمة " * " لما فيـها مـن دلالات الهدايـة والرشـاد والنـور الـذي يضـئ ليـل المحبين ، وللأخر " خصم رمز السالب " – " ومـا فيـه مـن دلالات كثـيرة مـن سـلب للحقوق وللخير والسلام والحب :

– روما أحترقت يا مجنون !

* روما أبقى مـن نـيرون !

– روما لن تفهم أشعارك

* روما تحفظها عن غيب

– روما ستقطع أوتارك

* الحاني تصعد من قلبي

ولم يكن صوت الشاعر في هذا الحوار مجرد الرد على حجج " الأخر " ، وإنما استطاع باقتدار أن يطرح تصوره للغد الذي يتحقق فيه حلمه من أجل السلام لكل الأطراف ، مستخدما حججه العادلة القائمة على المنطق والشفافية الإنسانية ، وبأسلوب حضاري بعيدا عن لغة السلاح والقتل والتدمير من خلال دعوته لخصمه " الأخر " بأن ينسى

١ – الديوان ص ٥٥٦ .

ألام الماضي التي لا دخل للشاعر فيها وذلك عندما يحاول الأخر(الإسرائيلي) أن يجد لنفسه مبررا لما ذهب إليه بالتذكير بالمحرقة التي حدثت لأجداده في أشفتس[١]:

– أجدادي ... أحترقوا في اشفتس

*** قلبي معهم ... فإنزع من قلبي الأسلاك**

– وجراح الأمس

* دعها وصمة عار في وجه السفاح هناك

– فأسبك سيفك محراثا

*** لم تترك لي من أرضي ميراثا**

– يـــا مـجــــرم ... !

*** لم أسرق ... لم أقتل ... لم أظلم**

– يا عربي ... يا كلب

*** يا هذا ... يشفيك الرب**

يا هذا ... جرب طعم الحب

يا هذا ... أفسح للشمس الدرب

كما نرى فشاعرنا الفلسطيني نجده يتعاطف مع خصمــه " الأخـر " لـما حـدث لإجـداده ويطالبه في الوقت نفسه ألا يقوم بدور الجاني وأن يـنرك جـراح الأمـس للتـاريخ كوصمـة عار بالنسبة للجاني السفاح هناك ، ولكن النزعة العدوانيية عند هذا الإسرائيلي تفضحه عندما يواجهه الفلسطيني بحقيقته في إغتصاب الأرض فينهال عليه بالسباب والشتائم ، بينما الفلسطيني يطلب له الشفاء من عقده الموتورة ، وأن يجـرب طعـم الحـب ، ويفتـح

١ – المعتقل النازي الشهير الذي يقال أن اليهود أحترقوا فيه .

نافذة من نور الحقيقة . كما أن عنوان القصيدة يكشف عن النزعة الأنسانية عند الشارع الفلسطيني حينما جعل الحوار مع " رجل " ولم يقل عوي أو خصمي أو غير ذلك ، كما أن كلمة يكرهني تحمل معنى مخففا بدلا من : يقتلني أو يسفك دمي أو يعذبني فقد يتحول الكره عندما تتغير الأسباب

نلاحظ أن الحوار بدأ بتكرار "روما" خمس مرات لأن روما "فلسطين " هي مركز الدائرة في الصراع وقد ركز الآخر على حرق روما " وهو ما يتناسب مع طبيعته العدوانية — بينما الشاعر يري أن "فلسطين" أبقى من كل القادة المعتوهين من شواذ البشر، الذين لا يمثلون إلا لحظة عابرة في عمر التاريخ والأوطان، وفلسطين باقية ما بقيت الحياة على الأرض .

أما أن روما " فلسطين " لا تفهم أشعار شاعرها كما يدعى الآخر فهذا يدل على أن الشاعر من حبه لوطنه دائم الغناء له ويحلم بأمنه وسلامه من جهة، وفي المقابل يدلنا على أن "الآخر" لا يفهم لغة الشعر الرقيقة العذبة والأحاسيس النبيلة وإنما يفهم لغة القتل والتعذيب والتدمير. ولهذا كان رد الشاعر أن فلسطين تحفظها عن غيب من منطلق العلاقة الحميمة التي تربط الشاعر بوطنه. وحينما حاول الآخر أن يستفز الشاعر بأن فلسطين عصية عليه وأنها ستوصله إلى الإحباط واليأس، أجابه الشاعر بأن ألحانه تصعد من قلبه، قلبه الذي يستعذب العذاب بنفس عاشقة مولهة تجد نفسها في فنائها من أجل من تحب "فلسطين" . ولذا فإنه لن يكل أو يفت في عضده أو يصاب بأي إرهاق أو تعب مهما طال الدرب. وإنه لن يصلب، وعندما يحاول الآخر إيجاد مبرر لأعماله العدوانية بتذكير الشاعر بإحراق أجداده في "اشفتس" بألمانيا نري نزعة الشاعر الإنسانية التي تتعاطف مع عدوه ولذا يطالبه بنزع الأسلاك من جلد الشاعر إذا كان قد شعر هذا الآخر حقاً بالظلم، فالأولى به أن لا يمارس مما يشكو منه من ظلم وتعذيب للآخرين.

وإذا كان الشاعر/سميح القاسم قد أقام حواراً مع رجل يكرهه، فلربما كان هذا الرجل من عتاة الساسة ؟؟ أو من غلاة الصهاينة المتعصبين، فإن الشاعر/ محمود درويش أقام حوراً مع جندي في الآلة الحربية الإسرائيلية، ممن وقع في الشباك الفولاذية من خلال الدعايات المضللة عن أرض الميعاد، وواحة الأمن الديمقراطية المزعومة، ليكشف لنا هذا الحوار عن العلاقة الهشة التي تربط مثل هذا الجندي بالأرض الموعودة، وعن تحقيق الأحلام الوردية والأماني المعسولة عبر واقع لا إنساني فرض عليه وليجرد نفسه من آدميته وإنسانيته، ليصبح قاتلاً لأناس أبرياء، ومروعاً لأمنهم، ومحيلاً حياتهم إلى جحيم لا يطاق، دون ذنب اقترفوه، وذلك في قصيدة له بعنوان :"جندي يحلم بالزنابق البيضاء"يقول فيها[1]:

يحلم بالزنابق البيضاء
بغصن زيتون ...
بصدرها المورق في المساء
يحلم – قال لي – بطائر
بزهر ليمون
ولم يفلسف حلمه، لم يفهم الأشياء
إلا كما يحسها ... يشمها
يفهم – قال لي – أن الوطن
أن احتسي قهوة أمي
أن أعود في المساء

١– ديوان محمود درويش، ص ١٥٩ ، دار العودة ، ط١١، سنة ١٩٨٤م، بيروت .

استطاع الشاعر أن يغوص إلى أعماق نفس هذا الجندي – ليسبر غورها – ويكشف عن مكنوناتها، وعن الوجه الآخر لهذا الجندي، الذي صُدم بالواقع الفظ الذي يعيشه ويريد الهروب منه ليبحث عن :

- حلمه بالزنابق البيضاء –رمز الحب والنقاء –والوداعة والسكينة والصفاء.
- **حلمه بغصن زيتون–رمز الأمن والسلام والعطاء–بطائر حر يحلق آمناً في الفضاء**
- بزهر ليمون ... رمز الطبيعة وعطرها الوضاء

وهو في حلمه هذا ينطلق من فهم للأشياء كما يحسها ... ويشمها... ويتذوقها عن قرب وليس عن فلسفة فيها، وكما يفهم الوطن أن يحتسى قهوة أمه، وأن يعود في المساء سالماً.

والأرض
قال : لا أعرفها
ولا أحس أنها جلدي ونبضي
مثلما يقال في القصائد
وفجأة ، رأيتها
كما أرى الحانوت – والشارع والجرائد
من أجلها تموت ؟!
كلا! وكل ما يربطني بالأرض من أواصر
مقالة نارية ... محاضرة !
ولم أحس أن أحب حبها

ولم أحـس أن قلبـها قلـبي !

ولم أشـم العشـب، والجـذور، والغصـون

سـألته : تُحبـها ؟

أجـاب : حـبي نزهـة قصـيرة

أو كـاس خمـر – أو مغـامرة

وسـيلتي للحـب بندقيـة

وعـودة الأعيـاد مـن خرائـب قديمـة

وصمـت تمثـال قديـم ... ضـائع الزمـان والهويـة!

هذه وسيلة الحب عند الجندي... بندقية: فهل لحمايتها له ولشعوره بـالأمن في ظلها... أم لعشق القتل وسفك الدماء ؟! وكما تكون في عودة الأعياد من وسط الحطـام والخرائب القديمة، وعـبر صمـت تمثـال قديـم (الهيكـل) الـذي لا وجـود لـه في الزمـان والمكان؟ ...

وبعد أن تحدث الجندي للشاعر عن حبه الأول، وعن الشـوارع البعيـدة، وعـن ردود الفعل بعد الحروب وبطولة المذياع والجريدة ... طلـب الشـاعر مـن الجنـدي لقـاءً آخر، فيجيبه الجندي... في مدينة بعيدة عن هذا المكان ...، وعن استفسار الشاعر عن نية الرحيل عند الجندي ... والوطن الذي حـارب مـن أجلـه ... يجيـب الجنـدي أن يتركه من هذا قائلاً له :

دعـني ...

إنـني أحلـم بالزنـابق البيضـاء

بشـارع مغـرد ومـنزل مضـاء

أريـد قلباً طيباً ، لا حشــو بندقيــة

أريـد يومـاً مشمسـا ، لا لحظـــة انتصـار

مجنونــة ... فاشـــية

أريد طفلاً باسماً ... يضحك للنهار ،

لا قطعــة في الآلــة الحربيــة

جئـت لأحيـا مطلــع الشــموس

لا مغربـــــها .

وكما نرى استطاع الشاعر من خلال الحوار الذكـي والواعـي والحضـاري، ومـع جندي كل مهنته القتل والدمار أن يتسلل إلى عقل هذا الجندي وقلبه محاولاً نـزع الكـره والقتل الذي زرعته آلة الحرب العسكرية ، وانتشاله مـن واقعـه المليء بالقسـوة والظلـم والحقد، وعودته إلى طبيعته الإنسانية إنسانا" يبحث عن تحقيق أحلامه المشروعة:

وكما نري جاء هذا الجندي – كمـا يقـول – ليحيـا مطلـع الشـموس : شمـوس الحب والحرية والأمن والسلام، لا مغرب هذه الأماني والأحلام، التي تسـعى الإنسـانية جاهدة لتحقيقها.

والوطن عنده أولاً وأخيراً هو أن يحتسي قهوة أمـه لتعيـد إليـه حنانـها وحبـها وهو في حضنها مطمئناً ليعود إليها حينمـا يـأتي المسـاء آمنـاً سـالماً ... بعيـداً عـن دوي الرصاص والكره والحقد والاقتتال.

وهكذا نري الشاعر الفلسطيني في سعيه نحـو تحقيـق الحلـم والأمـل في السـلام العادل والشريف من خلال حواره مع " الآخر " فالسلام ليس في مصلحتـه هـو وحسـب وإنما في مصلحة الآخر والبشرية جمعاء.

ولمزيد من الاهتمام بالسلام – الحلم والأمل – في الشعر الفلسطيني، نري الشاعرة الفلسطينية/فدوي طوقان، تلتفت إلى الأطفال، وأي أطفال، إنهم أطفال الآخر .. وهم في براءتهم الصافية في حب وحنان وعطف الأم وتنسبهم إليها "يا طفلي"[1] خوفاً عليهم من تلوث هذه البراءة الإنسانية وفقدها وبالتالي سقوطهم في مستنقع الحروب والعدوانية، وتحويلهم إلى آلة صماء لا تعرف إلا لغة القتل والبطش. إذا شبوا عن الطوق، واصطادتهم بشبكتها الفولاذية، ودعايتها المسمومة التي تنفث حقداً وكرهاً، وتشيع حالة من الفزع والرعب في المنطقة المحيطة بها.

ولذا نري الشاعرة تحرص على أن يعيش هذا الطفل وكل الأطفال – حياتهم الطبيعية، بأحلامهم الوردية في ظل أمن وسلام، بعيداً عن كل ما يكدر صفوهم وإنسانيتهم. جاء ذلك من خلال قصيدة الشاعرة :" إيتان في الشبكة الفولاذية"، وإيتان طفل إسرائيلي من أطفال الروضة في "كيبوتس" معوز حاييم في الجليل الأعلى، يسأل مدرسته ذات صباح سؤالاً عفوياً بريئاً قائلاً: كم يوماً يتوجب علينا أن نحافظ على الوطن ؟" وذلك من خلال ملاحظة الطفل لحياة التجييش التي تعيشها إسرائيل رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً، فتموج عاطفة الشاعرة بشتى الأحاسيس من خوف ويأس وحب ورجاء اتجاه المستقبل فتقول :

تحت "الشجرة" وهي تفرع، تكبر تكبر

في إيقاعات وحشية

تحت "النجمة" وهي تشيد بين يديه

جدران الحلم الدموية

---

١) ديوان فدوي، ص ٦٢٦، دار العودة ، بيروت ، ط١ ، سنة ١٩٧٨ .

تحبك بخيوط الفولاذ الشبكة

تسقطه فيها – تسلبه الحركة

يفتح عينيه "إيتان" الطفل الإنساني

يسأل في سجف العتمة

عن معني الشبكة والجدران

والزمن المبتور الساقين المتسربل

بالكاكي، بالموت القاسي بالدخان وبالأحزان

والقصيدة جاءت في ثلاثة مقاطع، وفي صورة درامية، تتنامي فيها القصيدة من مقطع إلى مقطع، حيث تصف لنا الشاعرة في المقطع السابق – قيام دولة إسرائيل وبنائها، وتشييدها جدران الحلم الدموية في صورة عدوانية – غير طبيعية –، والمناخ الذي ولد فيه الطفل من قتل وسفك دماء، إذ تشبه الشاعرة قيام الدولة ونموها "بالشجرة" مع أن الشجرة ترمز الحياة وتقدمها ومواصلتها وما تجود به من ثمار وظلال، وقد حورت الشاعرة هذا المعني الطبيعي الخيري – للشجرة – لتعطيها معني آخر وهو زرع إسرائيل في قلب العالم العربي – في فلسطين – ونموها واتساعها عن طريق الاستيلاء على الأرض ورمزت لنشر المستوطنات هنا وهناك بالشجرة وهي تطلق الأغصان وتمد الفروع، كذلك توظف الشاعرة "النجمة" التي هي رمز الهداية والنور فتحورها عن هذا المعني وتستبدله "بنجمة داود الحمراء" رمز الشر والتضليل، إضافة إلى حشد المفردات والصور التي توضح الصورة العدوانية لمولد هذه الدولة مثل : الإيقاعات الوحشية – جدران الحلم الدموية – السقوط – السلب – الفولاذ والشبكة – العتمة – المبتور الساقين – الموت القاسي – الدم – الأحزان . كل هذا هو ما لاحظه الطفل البريء

الذي لم يلوث بالدعاية المغرضة، والأباطيل والأكاذيب التي تربي الأطفال بالحقد والكراهية. في جو من الغموض والتعتيم.

وفي المقطع الثاني :

يا طفلي أنت غريق الكذبة

والمرفأ يا "إيتان" غريق مثلك في بحر الكذبة

يغرقه الحلم المتضخم

ذو الرأس التنينية، والألف ذراع

تجيب الشاعرة عن تساؤل الطفل في المقطع الأول وهي بين الخوف والحسرة عليه من حقيقة واقعه، وحقيقة دولته الغارقة في بحر من الكذب والافتراء، تغرقه هو وأمثاله والوطن المزعوم بحلمها التي تضخم في امتداده واتساعه "من النيل إلى الفرات "

أما في المقطع الثالث :

أخشى يا طفلي أن يقتل فيك الإنسان

أن تدركه السقطة أن يهوي – يهوي

للقاع .

فإننا نجد امتزاج عاطفة الشاعرة بين الأمل والرجاء في أن يبقي الطفل محافظاً على إنسانيته وبراءته – الطفل الإنسان – وبين اليأس والخوف من أن ينمو ويكبر في هذه الشبكة العدوانية.

وفي المقابل نرى الشاعرة وهي تتمنى وتحلم بانتشال الطفل من براثن الأحلام السوداوية والدموية التي تنتظر الطفل حين يكبر في أحضان الصهيونية وبين الجدران

الدموية– فهي تخشى عليه وتراع وكأنه طفلها تحيطه بكل الحب والحنان خوفاً من أن يقتل فيه الإنسان وأن تدركه السقطة في براثن واقعة الدموي فيهوي ... يهوي للقاع .

وقد حشدت الشاعرة صوراً جزئية كثيرة ومن مفردات ذات إيقاعات صوتية متناغمة تتوافق والمعني الذي نشدته الشاعرة في تبيان النزعة العدوانية في تكرار الصور والمعاني مثل : الإيقاعات الوحشية – الموت القاسي– النيران والأحزان – القتل – السقطة وما يحمله لفظ يهوي وتكراره من تناغم صوتي ومن دلالات على مدي تأصل هذه النزعة العدوانية لدي الصهيونية، وحقيقتها الإجرامية.

المحور الثاني

السلام والواقع

كانت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، حدثاً تاريخياً مؤلماً غير مجرى الحياة ليس في حياة فلسطين وأهلها وحسب، وإنما على الخارطة الإقليمية والدولية، فقد فرض الاستعمار البريطاني أمراً واقعاً غريباً وعجيباً وظالماً تمثل في قيام دولة إسرائيل على حساب سكان فلسطين، فاغتصبت الأرض، وشردت الأهل عن طريق ترويعهم بما ارتكبته من مذابح في دير ياسين – وقبيه، وجامع اللد، وغيرها ... لتخلو لها الأرض من سكانها باستثناء جزء من الشعب الفلسطيني الذي آثر الصمود بالأرض مها كانت التضحيات .

إن هذا الواقع الجديد – الذي ما زلنا نعيشه – قد أحال فلسطين والمنطقة العربية بأسرها إلى حالة من الصراع المستمر، والاعتداءات والحروب التي تحصد الأرواح، وتلحق الآلام والجراح – التي ما زالت تنزف حتى أيامنا هذه وحتى بعد أن اتخذ زعماء الأمة العربية طريق السلام خيارا" استراتيجيا"، فإن إسرائيل ما زالت

تواصل عدوانيتها. وبالنسبة للإنسان الفلسطيني، فقد افقده هذا الواقع أمنه واستقراره، وتركه نهباً للمعاناة اليومية المعيشة من تشرد وضياع ... وحرمان حتى من حلمه في سلام يعيد إليه أمنه وكرامته وآدميته بعيداً عن الحروب وسفك الدماء، فكان هذا الحلم يصطدم بصخرة الواقع الظالم .

ولقد سطر لنا الشاعر الفلسطيني/ على هاشم رشيد قصيدة بعنوان "الشريد"، صور لنا الفرق الصارخ بين حياة الماضي ما قبل ١٩٤٨، التي كان ينعم فيها بحياة رغدة، وعيش رحيب في ظلال السلام والأمن والأمان، ومن أحلام بمستقبل ترفرف عليه السعادة والهناءة ، ونزعة الحب الإنساني الذي يلقي بها ضيوفه بالبشر ونزعة البناء والتعمير كما يقول [1]:

أنا يا أخي الإنسان مثلك كان لي وطن حبيب

قد كنت فيه أعيش في رغد وفي عيش رحيب

وبه الحدائق والجبال الشم والمرج الخصيب

وبه الأماني العذاب وشمس عز لا تغيب

كانت لنا الآمال والأحلام في الوطن الخصيب

من حدنا أثمارها تدنو على الغصن الرطيب

نلقي الضيوف ببشرنا في بيتنا السمح الرحيب

ونشيد في الوطن الحبيب المجد بالعرق الصبيب

أما الواقع الجديد فقد أصابه بالصدمة المريرة والذهول، وأفقده توازنه نتيجة ما أحدثه الانتداب البريطاني وإسرائيل من عبث وفساد، واستمرار في القتل والذبح والفتك

١- من ديوان أغاني العودة ،ص ١٨، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ .

بالأرواح وإزهاقها.. وكل ما اقترفوه من ويلات ومصائب سوف ترويها السنون في صحائف سوداء.

ويتناول الشاعر في وصف بعض الجوانب المأساوية: فبعد عالية القصور أصبح يعيش في كوخ حقير، وأصبح منبوذاً يطرد من البلاد التي يقصدها فيتقاذفه الموت والسنون كما أن السل أخذ يرتع وينحر في عظامه وعروقه وصدره، إضافة إلى الجوع والتشريد والحرمان يتجرعها أمرا" مفروضا" عليه، يقول الشاعر في تصوير بعض المآسي التي أفرزها الواقع الجديد :

كُنا كذلك حين عاث بأرضنا المستعمرون
ومضي اليهود يقتلون ويذبحون ويفتكون
وتأججت في أرضنا نوب ستروينها السنون
فيها بنكبتنا صحائف من سواد للعيون
أصبحت في كوخ حقير بعد عالية القصور
أصبحت منبوذاً تقاذفني المنايا والدهور
والسل ينخر في العظام وفي العروق وفي الصدور
والجوع والتشريد والحرمان أكواب تدور

وأمام هذا الواقع المرير كان طبيعياً أن يرفض الشاعر بلسان شعبه كل المشاريع التي عرضت عليه باسم السلام التي لم ير فيها سوى استسلاماً ذليلاً، واعترافاً مهيناً لهيمنة قوي الشر والباطل، فأي سلام مع ساكني الخيام الذين سئموا حياة الذل والمهانة بعد أن كانوا في عالية القصور في بلادهم؟، وأي سلام مع الذين سئموا الموت الذي يدب ببطه في عظامهم، وكأنما أعدوا هذه الخيام لتكون قبوراً لساكنيها ؟ لقد سئموا كل

الوعود والشعارات الكاذبة التي تزف لهم كل عام، طالما ظلموا تائهين مضيعين، فلا عودة تتحقق، ولا سلام يعيد الحق لأصحابه، وينصر المظلوم على الظالم.

لذا فهم بمثل هذا الاستسلام الذليل – مهما زيفوه بالسلام – كافرون، كما يقول الشاعر/ هارون هاشم رشيد [١] :

أقولها

أقول لا سلام

لأن ساكني الخيام قد سئموا مذلة الخيام

قد سئموا العذاب ... والشقاء – والسقام

قد سئموا الموت الذي .. يدب في العظام

قد سئموا الحياة كلها... قد سئموا المقام

لأنهم مشردون... ضاربون في القتام

لا شيء عندهم ... سوى السياط والحراب والسهام

سوى الوعود حولهم... تزف كل عام

لا سلام

فنحن بالسلام كافرون .. لأننا مضيعون تائهون

من نحن دونما بلادنا .. من نحن؟ من نكون ؟!

وكما نري فإن الشاعر يسوق مسوغات رفضه لمثل هذا السلام (الاستسلام) .. وما يفيده تكرار "السأم" لحياة الذل... والعذاب والشقاء والسقام ... والموت البطيء ... وحياة التشرد والضياع ... وضروب التعذيب من سياط وسهام وحراب.. فلا سلام مع

١– ديوان هارون هاشم رشيد، قصيدة لا سلام، ص ٢١٧، مصدر سابق .

الضياع .. ولا سلام من دون عودة كريمة إلى حضن بلادهم التي لا يكونون إلا بها وفي حضنها ... فإذا كانت للطيور أعشاشها .. وللحيوان أوكاره ومخادعه.. أفلا يحق للإنسان أن يكون له وطن يحميه ككل البشر والحيوان والطيور ؟! .

وفي المعنى نفسه ، يرفض الشاعر/سميح القاسم أيضاً هذه المشاريع التي تكرس أمراً واقعاً بني على الظلم والقتل وسفك الدماء، واغتصب حق الآخرين، ونهب خيراتهم، وأبقاهم يسكنون الخيام والمستوطنات التي تصرخ بالحزن والحمى وسل الذكريات، وتطفئ الحياة في عيونهم .. في أهلها الأبرياء الذين لم يسيئوا للحياة وقد غرس أجدادهم كل بذور الخير، ليجدوا أنفسهم أيتاماً يتضورون جوعاً على مآدب اللئام.

فكيف نرضي ونغني لمثل هذا سلام ؟!! فالسلام الحقيقي قتل في ربى وطنه وفي وديانه وسهوله وجباله ! فليبحثوا عن آخرين غير الشاعر ليغني لهم كما يقول، في قصيدة له بعنوان "السلام"[1]:

ليغن غيري للسلام

وهناك ... خلف حواجز الأسلاك ... في قلب الظلام

جثمت مدائن من خيام ... سكانها

مستوطنات الحزن والحمى وسل الذكريات

ليغن غيري للسلام

وعلى ربي وطني ، وفي وديانه قُتل السلام

١- الديوان ، ص ٨٤ ، مصدر سابق .

ورغم أن الشاعر، كما نري، يوضح في جلاء سبب رفضه لمثل هذا السلام الذي يطرحونه، لأنه يتناقض مع ابسط الحقوق المشروعة في أن يعيش الإنسان بعيداً عن الظلم والقتل والقهر وسيادة منطق الغاب، فإن بعض الناس يطالبون الشاعر بان يكون بوقا يردد الأضاليل والخداع لشعارات جوفاء عن الأخوة... والمحبة والسلام، وهم يعرون الأخوة من جلدها، ويتركونها مرتجفة في صقيع الزيف، بل يصل الأمر ببعضهم بلوم الشاعر على فضح أساليبهم ويتهمون قصائده بالسوداوية، وبث الحقد والقسوة في نفس شعبه المظلوم، ويحرمون عليه أن يتأوه من الألم والأنين .. لأن هذا في الحقيقة يفضح أساليبهم ودعاويهم الكاذبة فيصرخ فيهم بقوله في قصيدة بعنوان : " أخوة "[1] :

أيا سائلي في تحد وقسوة
أتنشد ؟ أين أغاني الأخوة ؟
قصائدك السود بركان حقد
ومرجل نار وسخط وقسوة
فأين السلام ؟ وأين الوئام
أتجني من الحقد والنار نشوة
فهلاّ طرحت رداء الحداد
وغنيت للحب أعذب غنوه !

ومع كل هذا نرى الشاعر/ توفيق زياد في قصائده – التي هي كل ما يملك – إذ يهبها، غناءً وحباً وحلماً باسماً للحياة الآمنة .. وللغد الآتي المشرق، لكن دون أن يصدمه الواقع. ففي قصيدة له بعنوان "المغني " يهب نفسه مناصفة بين الإنسان

١– الديوان ، ص ٨٠ ، المصدر السابق .

والطبيعة اللذين هما عماد الكون فلا معني لوجود الكون دون الإنسان الذي جعله الله خليفة له في أرضه وأشرف مخلوق، سخر له كل شئ في الكون وكذلك الطبيعة لتحتضن هذا الإنسان تغذيه وتحنو عليه. واختار من الإنسان "الطفل" ممثلاً للبراءة والطهارة رجل المستقبل. كما اختار "الزهرة" رمزاً للطبيعة بطهرها وشفافيتها وعطرها وعطائها للمستقبل باسم حالم يقول الشاعر[1]:

وأعطى نصف عمري للذي يجعل
طفلاً باكياً يضحك
وأعطي نصفه الثاني ، لأحمى
زهرة خضراء لأن تهلك
أنا بشرية في حجم إنسان
فهل ارتاح، والدم الذكي يسفك ؟!
أغني للحياة
فللحياة وهبت كل قصائدي
وقصائدي هي كل ما أملك !

كما نري فإن الشاعر يعطي نصف عمره لمن يستبدل بكاء الطفل، بضحكة منورة تذهب الحزن والخوف والفزع، ولتحل الأمن والحب والسلام، ويعطي نصفه الآخر ليحمى زهرة خضراء يتولاها بالعناية والرعاية والنماء حتى تقوم بدورها فتهدى الحب والخير والأمان ويحميها من الهلاك والبوار والموت.

١- ديوان توفيق زياد ، ص ٢٣٩، مصدر سابق .

ولا يتوقف عطاء الشاعر عند هذا الحد فمن أجل تحقيق حلمه وأمله فهو على استعداد لتحمل كل الصعاب والعراقيل مهما بلغت التضحيات :

وأمشي ألف عام خلف أغنية ،

وأقطع ألف واد

شائك المسلك

وأركب كل بحر هائج

حتى ألم العطر

عند شواطئ الليلك

– وكما نرى فهو على استعداد أن يمشي ألف ميل خلف أغنية بكل ما يحمله الغناء من الصفاء والحب والأمان.

– وأن يقطع ألف وادٍ بكل ما فيه من وعورة ومخاطر ودروب شائكة.

– وأن يركب كل بحر هائج ثائر محمل بالأخطار، ومنذر بأفدح الأهوال حتى يلم العطر عند شواطئ الليلك – عطر الحب والصفاء والهناء .. عطر السعادة والسلام.

ولكن الواقع المدجج بالعنف والعدوانية والكره والبغضاء ومنطق الغاب، يقف بالمرصاد ليصدم الشاعر، ويقطع علية آماله وأحلامه، وينزله من عالم الشعراء وعالم الأحلام إلى بشريته التي لها قدرة محدودة من الصبر والجلد. فهل يرتاح الشاعر والدماء الزكية تُسفك ظلماً وعدواناً دون ذنب، من قبل أُناس عرفوا بالعقد الموتورة، والعنصرية البغيضة والعدوانية في أبشع صورها ؟!.

أما الشاعر/ راشد حسين، فإنه يُعلن عن رفضه لكل فعل من شأنه أن يلحق الضرر بالإنسان والطبيعة الوادعة المعطاءة، في قصيدة جعل عنوانها "ضد"[١]

ضد أن يجرح أطفال بلادي سنبله

ضد أن يحمل طفل أي طفل قنبلة

ضد أن تدوس أختي عضلات البندقية

ضد ما شئتم ... ولكن

ما الذي يصنعه حتى نبي أو نبية

ضد أن يصبح طفل بطلاً في العاشرة

ضد أن يثمر ألغاماً فؤاد الشجرة

ضد ما شئتم .. ولكن

بعد إحراق بلادي ورفاقي وشبابي

كيف لا تصبح أشعاري بنادق

كما نرى بدأ الشاعر كل أبياتها "بضد" ليلفت الانتباه منذ العنوان إلى أن بؤرة الاهتمام التي تتمحور حوله القصيدة هو رفضه القاطع لكل ألوان العنف والقتل والعدوان، وقد ركّز الشاعر هُنا أيضا بصفة أساسية على الركنين الأساسيين في هذا الوجود وهما: الإنسان المولود على الفطرة الخيرة في مرحلته الأولى وهي الطفولة البريئة التي ستكبر على الحب والخير والأمان، وعلى الطبيعة الوادعة الخيرة المعطاة ممثلة في السنبلة والشجرة رمزي الغذاء والرزق والسلام، كما نري سعة أفق الشاعر في تكرار "ضد ما شئمتم " التي تدل على رفضه لكل الأعمال العدوانية، والشاعر حريص على أن لا تروع

١- ديوان راشد حسين ، أنا الأرض لا تحرميني المطر ، ص ٢٤ ، مصدر سابق .

الطفولة بالرعب والفزع، ولا يريد لهـا شرف البطولـة في سن مبكـرة عـن طريـق القتـل والدمار، كما لا يريد أن يلحق الضرر بالطبيعـة " السـنبلة والشـجرة" وحتـى لا تتحـول وظيفتها الطبيعية من العطاء إلى أداة قهر وقتل : كجرح السنبلة، وأن تثمـر ألغامـاً فـؤاد الشجرة، وأن تصبح أغصان البساتين، وحياض الورد مشانق .

وهو في رفضه لكـل الأفعـال العدوانيـة الـتي تقوم علـى العنـف والإيـذاء، إنمـا يكشف عن حلمه وأمله في أن يسود الأمن والحب والسلام فلا يـؤذي أحـد أحـداً، وقـد جاء بالفعل المضارع المسبوق بأن المصدرية والذي يفيد المستقبل مثـل : يجـرح – يحمـل قنبلة – دوس عضلات البندقية – أن تثمر الشجرة ألغاماً، وأن تصبح أغصـان البسـاتين وحياض الورود مشانق .

كما يلاحظ فائدة التكـرار لضـد في أوجـهـها البلاغيـة الـتي تفيـد التـأكيد علـى الرفض بقوة من جهة، كما يفيد تعدد كل الأفعال التي تحول دون سلام ووئـام . إضافـة لذلك نري الفائدة من تنكير الطفل لبيان نزعته الإنسانية المحبـة للأطفـال كـل الأطفـال حتى لو كان طفل عدوه ليظل بريئاً طاهراً ينعم بالهدوء والأمان والسلام.

لكن الواقع الأليم – "الممثل في العدو وأساليبه ونزعته العدوانية – يصدم الشاعر ولا يتركه في العمل لتحقيق آماله وأحلامه في العيش في أمن وسـلام، حتـى لـو قـام بـها نبي أو نبية عندما تصطدم بخيول القتلة، وأدواتهم الشريرة التي دمـرت وحرقـت بـلاده ورفاقه وشبابه وإنسانيته .

وللشاعر/ محمود درويش قصيدة بعنوان : " ريتا والبندقيـة" يفجـر مـن خلالهـا قضية إنسانية هي قضية الحب الإنساني التي تربط بين عاشقين رغم اختلاف انتمائـهما : بين شاعر عربي فنان محب صاحب نزعة إنسانية صافية، يفيض قلبه بعواطف حارة

وخصبة، وفتاة يهودية تمارس حياتها البشرية في الحب. والشاعر يري أن هذا الحب من الممكن أن يستمر وينمو، ولأنه إنسان عربي مسلم على مستوى عال من الثقافة والحضارة، يدرك الفرق بين اليهودية دينا سماويا، وبين الصهيونية حركة استعمارية فرضت واقعاً مريراً باغتصابها لأرض فلسطين، وقتل أهلها وتشريدهم ، باستخدامها أداة القتل "البندقية" لتثبيت واقعها وبالتالي لبث الفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان بين عربي ويهودية جمعتهما علاقة حب وتوادد كان من الممكن أن يتنامى ويتطور إلى ارتباط بعضهما ببعض ليصل إلى الزواج وإقامة أسرة سعيدة تذيب كل الفوارق على أساس اللون والجنس أو العقيدة، وتنتصر عليها.

كما أن ديننا الإسلامي لا يمنعنا من ذلك، بل ويحثنا على تكوين علاقات الحب والتعارف والتآلف كما في قول الحق سبحانه وتعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "[١]. فكتاب الله يتوجه للناس كافة، مبيناً حقيقة خلقهم من ذكر وأنثى، وجعله لهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وأقرب علاقة وأقواها هي التزاوج والنسب القائم على الحب والتآلف.

لكن من الواقع الذي فرضته الصهيونية عن طريق القوة "البندقية" وقيام إسرائيل لم يقف في وجه هذا الحب الإنساني وتناميه واستمراريته وحسب، بل وقفت معادية للحياة وللإنسان، فقد أفسدت إسرائيل بقيامها الحياة الآمنة المستقرة الهانئة التي كانت سائدة في فلسطين، يعيش فيها المسيحي واليهودي مع المسلم الفلسطيني في حب وتسامح قبل قدوم إسرائيل وفرضها هذا الواقع الذي ما زال ينزف دماً ويمثل عقبةً كأداء في سبيل سلام عادل وشريف.

١- سورة الحجرات ، آية ١٣ .

ولنترك الشاعر يحدثنا عما فعلته هذه البندقية "إسرائيل رمز العدوانية " التي فرّقت بينه وبين حبيبته "ريتا" حيث يقول[١]:

بين ريتا وعيوني ... بندقية
آه ... ريتا
بيننا مليون عصفور ... وصورة
أطلقت ناراً عليها ... بندقية
آه ... ريتا
أي شيء رد عن عينيك عيني
سوى إغفاءتين وغيوم عسلية
قبل هذى ... البندقية !

والشاعر يوظف أسلوب القاص و الحكواتي في التراث الشعبي، من خلال حنينه وتذكره للماضي بنبرة حزينة لما وصلت إليه حال المدينة في ظل هذا الواقع العدواني الذي كنس كل المغنيين والمحبين وريتا، وذلك من خلال استخدام تعبير "كان يا ما كان" الشعبي المحبب، وليعطى شعره زخماً شعبياً وبعداً حضارياً في قوله :

كان يا ما كان
يا صمت العشية
قمري هاجر في الصبح بعيداً
في العيون العسلية
والمدينة كنست كل المغنيين ... وريتا

١- الديوان ، ص ١٩٢ .

بــين ريتــا وعيونـــي ... بندقيـــة

ولعل الربط المحكم بين عنوان القصيدة وبدايتها مع آخرها يدل دلالـة واضحـة على قدرة الشاعر على بناء قصيدته بناءً فنياً يشي بتملكه لناصية القصيدة الحديثة وعلى نسج مفرداتها نسجاً محكماً خدمة للنص من الناحية الموضوعية في بيان نزعته الإنسانية الصافية، وعاطفته النبيلة في الحب الإنساني الذي جاء هذا الواقع الشرير المثل في البندقية "إسرائيل" التي تقف في وجه هذا الحب الذي يبني حياة الأمن والسلام، ولا يعيش إلا في ظلاله ... لتبين عن وجهها الحقيقي الذي يطفح بالكره والبغضاء ولا يعيش إلا على الحروب والقتل وسفك الدماء .

وشاعرنا الفلسطيني رغم واقعه الأليم، ومن منطلق حبه للسلام العادل، والذي لا يكن أو يضمر عداءً لأحد، نراه يفرق بين اليهودي الإنسان، والصهيوني ابن المؤسسة العسكرية العنصرية العدوانية التي قامت على القتل وسفك الدماء، نراه (الشاعر الفلسطيني) يقدر موقف بعض اليهود وينعتهم (بالأصدقاء) لقيامهم بتوزيع المنشورات عن الشهداء العرب الخمسة في ساحة (ديزنكوف) في قلب تل أبيب، لتعرضهم للاعتداء من قبل أجراء البوليس الصهيوني وتمزيق ثيابهم، وحرق مناشيرهم وكتبهم الاحتجاجية التي كانوا يحملونها مما دعا الشاعر/توفيق زياد إلى تحيتهم بقوله [1] :

الوردة أحمل ... والسلام الحق ... والحب العميق

هذى يدي، يـا أصدقـاء كفاحنـا في كـل ضيـق

فـــي كـــل عـــرق نـــابـــض

عـــــهد الصديـق إلـــى الصديـــق

١- ديوان توفيق زياد ، ص ٣٥ ، بدون تاريخ ، مصدر سابق .

وكما نرى فشاعرنا في تحيته يحمل إليهم (الأصدقاء اليهود) مضامين ومعاني هي أغلى وأثمن ما تحمله الإنسانية من قيم ومثل عليا فهو يحمل :

- الوردة : رمز الحب والطهر، السلام الحق والعادل، وليس الاستسلام المذل والمهين.

الحب العميق : النابع من القلب المفعم بالإيمان الراسخ، والضارب بجذور في الأعماق صقلته وهذبته عقيدته الإسلامية السمحاء، وطهرته الآلام والجراح .

وبهذا كله يمد يده معاهداً إياهم أصدقاء كفاح ضد الظلم بمختلف أشكاله... وبكل ما يحمله الصديق إلى الصديق من الوقوف معاً عند كل ضيق أو جور أو ظلم على الآخر، أو على أي إنسان.

ومن هذا المنظور الإنساني، والأفق الرحب يرفض شاعرنا "الذل" لو أصاب غيره، ومها كان هذا "الغير" لأنه إذا صمت عليه أو رضي به كان - كما يقول - كالحفار قبره:

عبد أنا إن كنت أصمت

لو أصاب الذل غيري

وإذا رضيت بحفر قبرك

كنت كالحفار قبري

وشاعرنا الفلسطيني لم ينس الدعوة إلى المحبة والسلام حتى وهو داخل السجن، ولقد كانت الانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧م التي بدأها أطفال الحجارة واحتضنها الشعب بأسره مجالاً خصباً للشعراء ليحدثوا قفزة ضد الواقع الأدبي، والذي اصطبغ إلى حد ما بأنين الرومانسية الخافت فالكثير من الشعراء كتب قصائده من داخل السجون والمعتقلات، فمن رحم المعاناة يخرج الشاعر/المتوكل طه ليطل علينا محاولاً إقامة حوار مع السجّان، لكنه يستخدم "المنولوج الداخلي " - عندما رأي أن عدوه (السجان) لا يفهم لغة الحوار الحضارية، وذلك في قصيدة بعنوان: " هل أبعدوك" وذلك

في معرض الممارسات القمعية التي اتخذتها سلطات الاحتلال رداً على الانتفاضة الباسلة من تكسير للعظام إلى السجون والمعتقلات إلى عمليات الاقتلاع من الجذور والإبعاد فيأتي الشاعر من داخل معتقل أنصار متناسياً كل ألوان العذاب ليهتف للمحبة والسلام وللدنيا بأسرها فيقول [1] :

قد قلت : إني عاشق للناس ،
كل الناس ، لم أكره أحد
وأريد أن أحيا ككل الناس
حراً للأبد
وأريد للدنيا المحبة والسلام

وكما نرى، تبدوا نزعته الإنسانية للمحبة والسلام في مفرداته البسيطة، عشق الناس كل الناس، أما الكره فإنه لا يكره أحد وما فيها من مفارقات تصويرية ... وهو لا يريد إلا أن يحيا مثل كل الناس حراً كريماً كما خلقه الخالق الأعظم، وكما يريد أن يمشي إلى قمره وأن يدق الصدر بالورد، وأن يبوح بالناي الرقيق في أمن وسلام له وللدنيا بأسرها.

ويلتفت الشاعر إلى الأطفال الأبرياء البواسل .. الذين تفتحت عيونهم على الظلم والقهر فلم يطيقوها، وبنظرة حنونة عطوفة إنسانية يريد أن يبعد الأطفال عن الغرق بدمائهم وإحراقهم داخل سجون الانتقام التي جردت من إنسانيتها، كما يريد لموال المحبة والسلام أن يعلو فيقول في القصيدة نفسها :

وأريد للأطفال أن لا يغرقوا

١- د. عادل أبو عمشة : شعر الانتفاضة دراسة واختيار،ص ٨٠، اتحاد الكتاب الفلسطيني في الضفة والقطاع القدس، سنة ١٩٩١م .

بدمائهم، بعويلهم ...
أن لا تحرقهم سجون الانتقام
وأريد للموال أن يعلو
على صوت الطلق .

أما شاعرنا/ سميح القاسم فيدعو إلى أن تسود المحبة والحرية والطمأنينة السلام للطرفين الفلسطيني والإسرائيلي لأطفال الجانبين وشبانهم وآبائهم فيقول من قصيدة بعنوان : " أطلوا وأصغوا "[1]

لأطفالنا أن يسيروا بأمن إلى المدرسة
لآبائنا أن يقيلوا إلى توتة الدار
في العطلة المشمسة
لأطفالكم أن يشبوا بلا بزة عسكرية
لشبانكم أن يضموا حبيباتهم بلا أذرع معدنية
لنا ولكم أن نكون بلا خوذة وبلا بندقية
لنا ولكم أن نعيش بقايا الأغاني
وما ظل في عمرنا من أماني
لنا ولكم أن نعيش بلا مهنة الرقص
بين القبور وبين النعوش
ولا عسف ، لا قصف، لا نسف ، لا خوف ، لا بربرية

١- المصدر السابق، ص ٦١ .

فسلام الشاعر سلام عادل ليس له فقط وانما للآخر أيضاً، سلام يضمن الأمن للجميع، دون عسف أو قصف أو خسف، أو جنون أو بربرية.

أما الشاعر/ شفيق حبيب فإنه يقايض بالسلام دمه في الوقت الذي يشهر فيه عدوه خنجره الدموي الذي يغتال أجنحة السلام ويشنق الأحلام والأمن والأمان .[1]

إنا نقايض بالسلام دماءَنا
لكن عدو النور والإنسان
يشهر خنجراً ...
يغتال أجنحة السلام
ويشنق الأحلام ...

والشاعر نفسه من فرط عشقه للإنسان يبذل دمه زيتوناً في مصابيح الدجى، وشقائق النعمان، ووروداً في أكاليل الذي يأتي سلاماً يطفئ البركان، فدمه خبز وخمر وقربان، ولأنه يعشق الإنسان يطارده رجال الغاب والأحقاد، فمتى يأتي السلام المرتجى كي تورق الأغصان، ومتى تبني لنا عشاً حصيناً آمناً من سطوة الغربان، تبعثر حلم قطاع الشعاب وشهوة القرصان[2]:

لأني أعشق الإنسان
بذلت دمي ...
زيوتاً في مصابيح الدجى... وشقائق النعمان
بذلت دمي ...

١- المصدر السابق، من قصيدة بعنوان قمر تحطم ، ص ١١١ .
٢- المصدر السابق، من قصيدة بعنوان "لأني أعشق الإنسان" ، ص ١١٢ .

ورودًا في أكاليل الذي يأتي سلاماً يطفئ البركان

وفي خبز ... وفي خمر ... وفي قربان

لأن أعشق الإنسان

يطاردني رجال الغاب والأحقاد والأعوان

وشاعرنا لم ينكر حق الآخرين في الحياة، ولم يدخر جهداً في تلمس السلام، وأخذ يحاور الأدباء والشعراء والمفكرين من الطرف الآخر، وكانت أولى هذه المحاولات في الحوار المباشر الأول، الذي جرى في حيفا [١]، ثم تلاه لقاء آخر في تل أبيب بمبادرة "منظمة الكتاب العبريين". وقد استخدم شاعرنا/محمود درويش وسيلة المحاكاة أو الانتحال" مع الكتاب اليهود من خلال استفتاء عدد منهم حول مفهومهم لحق الشعب الفلسطيني في الحياة الحرة الكريمة خرج الشاعر في نهايته بان الطرف الصهيوني عاجز عن الأعتراف بحق الآخر " الفلسطيني " وبعيدا عن التفاهم وعن السلام الشريف .

ولقد أثبت الإنسان الفلسطيني جدارته بالحياة الحرة كريمة وباحترام العالم له عن طريق المقاومة التي تجلت أخيراً في الانتفاضة البطولية لأطفال الحجارة ومؤازرة كل الشعب، مع هجوم جيش الأدباء والشعراء الفلسطينيين ونزعتهم الخيرة المسالمة، الذين كشفوا للعالم أجمع النزعة العدوانية للآخر وممارساته الدموية واللاإنسانية مع أطفال في عمر الزهور، الذين لم يرضوا بالظلم والقهر والاحتلال، فأيقظوا الضمائر من غفوتها، واكتسبوا تعاطف العالم واحترامه وإعجابه . وأجبروا المجتمع الدولي على إيجاد الحلول والاعتراف بحق الإنسان الفلسطيني في العيش بأمن وسلام داخل وطن معترف به، وفي ظل دولة ذات سيادة مهما كان حجمها في البداية . وكان مؤتمر السلام الذي عقد في

١- مجلة الجديد، العدد ١١ كانون الأول سنة ١٩٦٩، محمود درويش ، من المونولوج إلى الديالوج (الافتتاحية) .

مدريد في نهاية شهر أكتوبر سنة ١٩٩١م، والذي خرج بمبدأ " الأرض مقابل السلام " على أساس قراري الأمم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨ ، والقوانين الشرعية الأخرى ولتبدأ مرحلة أخرى .

وبعد : وبعيداً عن استباق ما تسفر عنه المفاوضات السياسية، فإن السلام العادل والشريف سيظل حلم وأمل الشاعر الفلسطيني لسان شعبه .. حتى يتحقق الحلم ويتغير هذا الواقع المأساوي .. سلام يعود فيه الحق لأصحابه، ويعود المشرد إلى حضن وطنه .. سلام يزول فيه الظلم .. وتعود للإنسان المضطهد كرامته وآدميته .. وينعم بحياة حرة كريمة كباقي البشر دون خوف أو قهر من أحد. وسيظل الشاعر ينشد السلام ويحلم به، وسيظل ثائراً على الواقع المأساوي واللاإنساني الذي يعيشه هو وشعبه حتى يصبح الحلم حقيقة، ومستقبلاً أفضل وأجمل.

الخاتمة

حاولت في هذا البحث أن أتناول قضية إنسانية تهم البشرية جمعاء، وهي قضية "السلام في الشعر الفلسطيني الحديث حتى عام (١٩٩١م)". وذلك من خلال النصوص الشعرية التي توضح موقف الشاعر الفلسطيني من قضية السلام وذلك في مدخل ومحورين : **المحور الأول/** السلام حلم وأمل، والمحور الثاني السلام والواقع.

وفي المدخل: تناولت مفهوم السلام: لغة، وشرعاً، ومفهومه في العصر الحديث. وصلته بفلسطين.

أما المحور الأول : "السلام حلم وأمل" : فقد أوضحت أنه إذا كان الإنسان بصفة عامة بين حلم يسعى لتحقيقه – كبر هذا الحلم أم صغر –، وبين واقع يريد تغييره نحو الأفضل فإن الشاعر دائم الحلم نحو الأجمل والأمتع .وإذا كان السلام العادل والشريف

حلم كل شعوب الأرض المحبة للأمن والسلام فإنه بالنسبة للشاعر الفلسطيني ولشعبه يأتي في قمة أهدافه وأغلى أحلامه.

- الشاعر في حلمه الإنساني بالسلام، لم يطلب المعجزات أو الخوارق والمستحيلات، وإنما أن يعيش في أمن وسلام، وفي حضن وطن يشعر فيه بالدفء والأمان كباقي البشر بعد أن حرم منه.
- والسلام حلم وأمل عند الشاعر الفلسطيني، يظهر ذلك جلياً في نزعته الإنسانية الصافية الخيرة ومقابلتها بالنزعة العدوانية عند العدو، ومن خلال محاولة الشاعر الفلسطيني من إقامة حوار مع العدو، ومحاولة الوصول إلى أعماقه ليوقظ فيها الأحلام الخيرة بالسلام والأمان : كما رأينا في قصيدة للشاعر/ محمود درويش بعنوان: " جندي يحلم بالزنابق البيضاء"، وكذلك قصيدة الشاعر/ سميح القاسم بعنوان "حوار مع رجل يكرهني" وغيرها.

أما المحور الثاني : السلام والواقع فقد بينت أن الواقع المأساوي الأليم الذي عاشه الشاعر الفلسطيني بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م – وما يزال يعيشه – جعله يرفض كل مشاريع السلام المزيفة التي قدمت له – من أجل طمس هويته ووجوده وكرامته، وعدم الاعتراف بحقوقه المسلوبة وحقه في الحياة حراً كريماً كباقي البشر، وأخذ يطلب السلام العادل عبر هذا الواقع المرير باتباع طريقتين ساراً جنباً إلى جنب إحداهما – الكفاح المسلح والمشروع الذي اتخذته كل شعوب الأرض من أجل نيل حريتها وأمنها وسلامتها، وضرب الإنسان الفلسطيني أروع الأمثلة في الفداء والتضحية استحق إعجاب معظم دول العالم واحترامها وتأييدها ونصرتها، وجعلت العدو يسعى إلى طلب الحوار معه وعقد اتفاقيات للسلام كما انتهي به الآخر في سنة ١٩٩١م، أما الثاني فهو إقامة الحوار مع الآخرين ومحاولة كسبهم لتفهم حقوقه الإنسانية.

- والشاعر الفلسطيني، ومن خلال واقعة فإنه لم يطلب السلام له وحده، وإنما يطلبه لكل الناس، ولكن على أساس من العدل والحق – وليس من منطلق الضعف رغم عظمة التضحيات وشدة الآلام، واختلاف موازين القوى التي يتسلح بها الآخر. فالسلام الحق لا ينطلق ولا يتحقق إلا من فلسطين.
- إن الشاعر الفلسطيني يمتاز ببعد نظر، وسعة أفق، فمن خلال الواقع ومرارته، ينشد السلام للأجيال القادمة، "للأطفال" من كلا الجانبين في نظرة إنسانية لا تباري – من خلال قصائد فدوي طوقان "ايتان في الشبكة الفولاذية" راشد حسين، "ضد"، وتوفيق زياد – "المغني" وغيرهم. ليوفر السلام والأمان والغد الباسم الحالم لهذه الأجيال .
- الشاعر الفلسطيني باعتباره ضمير أمته ووجدانها وفي نشدانه للسلام حلم وأمل وواقع ورغم أهمية الموضوع، فإنه قد امتلك ناصية اللغة وطوعها لخدمة نصه الشعري، الذي برهن على قدرته في امتلاك أدواته الشعرية، مسلحاً بثقافة عالية مكنته من نسج قصيدته نسجاً محكماً في مراحلها المختلفة – القصيدة العمودية – إلى قصيدة التفعيلة إلى آخر ما وصلت إليها القصيدة في تطورها ونضوجها، مستفيداً من الأجناس الأدبية الأخرى. كالقصة والرواية والمسرح، فاستخدم أسلوب القاص والخلواتي . إلى جانب أسلوب الحوار، والمنولوج والديالوج والتكرار وتعدد الشخصيات داخل القصيدة، إلا جانب الأدوات الأخرى.

ويظل التوفيق من عند الله ، فإن وفقت فمن عنده والله المستعان .

المصادر والمراجع

أولاً : الدواوين الشعرية

١-توفيق زياد، ديوان توفيق (الأعمال الشعرية)، ط١ ،دار العودة، بيروت، بدون تاريخ.

٢-حسن البحيري، حيفا في سواد العيون،ط١، دمشق، سنة ١٩٧٣.

٣-راشد حسين ، ديوان راشد حسين (الأعمال الشعرية) دار العودة ، بيروت ط١ ، سنة ١٩٨٢.

٤-سميح القاسم ، ديوان سميح القاسم (الأعمال الشعرية) ، دار العودة ، بيروت سنة ١٩٧٣.

٥ -شموع على الدرب، دار الكاتب العربي، ط١ ،سنة ١٩٦٧.

٦-عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى) ديوان عبد الكريم الكرمي (الأعمال الشعرية)، دار العودة، بيروت.

٧-على هاشم رشيد، أغاني العودة، مطبعة ممفيس، القاهرة، ط١، سنة ١٩٦٠،

٨-فدوي طوقان، ديوان فدوي (الأعمال الشعرية) ، ط١، دار العودة، بيروت، سنة ١٩٧٨.

٩-محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ط٣، سنة ١٩٨٤.

١٠-معين بسيسو، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ط٣،سنة ١٩٨٧.

١١-هارون هاشم رشيد، ديوان هارون هاشم رشيد، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت ، سنة ١٩٨١.

ثانياً : المراجع

١- أبوحامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، إعداد/عبد السلام الرفاعي، مركز القاهرة للترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

٢- أحمد بن على العسقلاني بن حجر، فتح الباري على شرح صحيح البخاري، تحقيق/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، د/ محب الدين الخطيب، ط٣،المكتبة السلفية، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ.

٣- القرآن الكريم

٤- توفيق الحكم، فن الأدب، مكتبة الآداب، القاهرة.

٥- د. خلقي صقر، تاريخ الحضارة الإسلامية، جامعة الخليل،ط١،سنة ١٩٩١م

٦- د. رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة المؤسسة العربية للدراسات،بيروت، ط٣، سنة ١٩٧٢م.

٧- د. عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٨١م.

٨- د. قصي الحسين، الموت والحياة، في شعر المقاومة، دار الرائد العربي، بيروت، سنة ١٩٨٢م.

٩- العرب،ط١،القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٥م.

١٠- د.إحسان عباس: فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٥٩م.

١١- د.أحمد صدقي الدجاني، عروبة وإسلام ومعاصره، منشورات فلسطين المحتلة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٢م.

١٢– د.عادل أبوعمشة، شعر الانتفاضة دراسة واختيار اتحاد كتاب فلسطين في د. كامل السوافيري، الشعر العربي، الحديث في مأساة فلسطين، مطابع سجل الضفة وغزة، القدس، سنة ١٩٩١م.

١٣– روجيه جارودي، "المأزق" ترجمة د. ذوقان قرقوط، دار المسيرة، بيروت سنة ١٩٨٤م.

١٤– عباس محمد العقاد، الإسلام والحضارة الإنسانية، المكتبة العصري، بيروت، بدون تاريخ.